الفلسفة الاسلامية المتأخرة

للدكتور جواد علي

— ١ —

يختتم أكثر المستشرقين بحوثهم عن الفلسفة الإسلامية بفلسفة المؤرخ والفيلسوف العربي ابن خلدون[١] ، كما فعل المستشرق دي بور « de Boer » في كتابه « تاريخ الفلسفة في الإسلام[٢] » وهو كتاب سلس سهل بسيط لا يوجد مثله في البساطة والسهولة في اللغات الأوربية[٣] . وكما فعل أغلب من بحث في هذا الموضوع إذا ما استثنينا كتاب المستشرق ماكس هورتن « Max Horten » عن « الفلسفة في الإسلام » وهو كتاب لا يستعرض الفلسفة الإسلامية عرضاً تأريخياً بل يتتبع الترتيب الفلسفي ، ويعالج المواضيع معالجة خاصة لا تخلو من نواقص وهفوات[٤] .

على أن هنالك طائفة غير يسيرة من الفلاسفة ظهرت بعد ابن خلدون تركت تراثاً فلسفياً مهماً وآثاراً خالدة في عالم الحكمة نبعت في أرض الشرق الأدنى ، وفي القرن الحادي عشر الهجري وما بعد كونت جيلاً خاصاً عليه طابع فلسفي خاص .

وفي طليعة أسماء رجال هذا الجيل عربي سوري من جبل عامل هو الشيخ محمد بن الحسين بن عبد الصمد الحارثي الجباعي العاملي المعروف « بالشيخ البهائي »[٥] « المتوفى عام ١٠٣١ للهجرة و ١٦٢٢ للميلاد »[١] والمير باقي الداماد « المتوفى سنة ١٠٤١ للهجرة و ١٦٣١ — ١٦٣٢ للميلاد » والحكيم الشهير الملا صدرا « المتوفى سنة ١٠٥٠ للهجرة و ١٦٤٠ — ١٦٤١ للميلاد » والملا محسن فيضي « المتوفى حوالي سنة ١٠٩١ للهجرة ١٦٨٠ للميلاد » والملا عبد الرزاق اللاهيجي والحاج ملا هادي السبزواري « المتوفى سنة ١٢٩٥ للهجرة و ١٨٧٨ للميلاد »[٢] .

وتغلب على فلسفة هذا الجيل الفلسفة الإشراقية الصوفية ، ولذلك عدهم العلماء في عداد الفلاسفة الصوفيين الذين جمعوا بين الرياضة والمجاهدة وبين الحكمة الإشراقية التي ينسبها المسلمون عادة حين ينسبون هذه الفلسفة إلى أفلاطون[٣] .

والإشراقيون هم أتباع المذهب القائل بحكمة الإشراق من تلاميذ التصوف الإسلامي الشهير السهروردي المقتول عام ١١٩١ للميلاد ؛ غير أن الفلسفة الإشراقية تسبق عهد السهروردي بزمن طويل[٤] . وهذه الفلسفة « هي فلسفة روحانية لها في نظرية المعرفة مذهب صوفي وتعبر عن الله وعالم العقول بالنور . والمعرفة الإنسانية في هذا المذهب عبارة عن إلهام من العالم الأعلى يصلنا بواسطة عقول الأفلاك . وأكبر أصحاب هذا المذهب هم : هرمس وأجاثوديمن وانبدوقليس وفيثاغورس وغيرهم . ولأفلاطون صلة بهذا المذهب أكثر من صلة أوسطو به . وهؤلاء الفلاسفة يوصفون غالباً بأنهم أنبياء أو حكماء ملهمون . وقد تأثرت الفلسفة الإسلامية بهذا المذهب منذ نشأتها إلى وقتنا الحاضر تأثراً كبيراً . وأتباع مذهب المشائين في الإسلام متأثرون بالفلسفة الإشراقية بعض الشيء . وربما كان أقلهم تأثراً بها الفيلسوف ابن رشد »[٥] .

نبغ رجال هذا الجيل في عهد الدولة الصفوية . والدولة الصفوية دولة قامت على أسس صوفية ؛ ولذلك راج التصوف في هذا العهد رواجاً عظيماً واكتسب صبغة رسمية ! فلا عجب أن رأينا

---

(١) ولد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون بتونس عام ٧٣٢ للهجرة ١٣٣٢ للميلاد وتوفي بالقاهرة سنة ٨٠٨ للهجرة ١٤٠٦ للميلاد .

(٢) راجع De Boer - History of Philosophy in Islam ترجمه إلى الانجليزية E. R. Jones ونقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريده وطبعه سنة ١٩٣٨ بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

(٣) راجع Brown-A. Literary History of Persia Vole. 4 1928 P, 425 .

(٤) راجع Phlosophy of islam max Harten

(٥) عن العاملي راجع روضات الجنات ج ٤ ص ٣٢٥ وفي Brown literary history of Persia. Vol. 4 P, 425. Sir John Malcolm History of Persia ed 1815 Vol 1 PP, 559 - 9.

(١) نفس المصادر أيضاً كتب عالم أراى عباسي في بحث شاه عباس .

(٢) Brown Vol 4 PP, 425 .

(٣) عن الحكمة للشرقية راجع كتب ماكس هورتن عن السهروردي وعن الشيرازي وكذلك بحث Carra de Vaux في المجلة الآسيوية المجموعة الثامنة ج ١٩ (١٩٠٢) ص ٦٣ .

(٤) راجع كتبه وتراجمه في طبقات الصوفية .

(٥) نقلا عن دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ص ٢١٢ مجلد ٣ مجلد ٢ .

فلاسفة هذا العهد فلاسفة صوفيين يأخذون بطريقة الإشراقيين ويروّجون الفلسفة الإشراقية التي هي أقرب فلسفة إلى مذاق وعقول المتصوفين[١] .

أما أولئك الذين حملوا البذرة الأولى للحركة العلمية والفلسفية في هذه الدولة فقد كانوا من العلماء العرب من سوريا ومن العراق ومن البحرين لاقوا ترحاباً والحكومة في حاجة إلى أنصار يؤيدون حركتها ووجدوا تشجيعاً في كل مكان ومقام . وكان على رأس من هاجر من سوريا إلى إيران الشيخ الحسين بن عبد الصمد بن شمس الدين العاملي الحارثي من قبيلة بني همدان . هاجر على عهد شاه طهماسب الصفوي فأسند إليه منصب «شيخ الإسلام»[٢] والشيخ زين الدين على العاملي المعروف بمنشار[٣] وكان على رأس من جاء من البحرين الشيخ ماجد البحراني المشهور في علم الحديث والفقه[٤] .

درس على أيدي هؤلاء العلماء جماعة من المهاجرين العرب ، ومن الوطنيين الفرس . وانتشرت بفضل هؤلاء الكتب العربية وتوسعت حركة التأليف بلغة القرآن . وظهرت طبقة فاقت مشائخها في العلم والشهرة على رأسها الشيخ بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبد الصمد العالم السوري المعروف المتوفى سنة ١٠٣١ للهجرة[٥] . ورث هذا العالم من أبيه الميل إلى التصوف والرياضة حتى عد في قائمة المتصوفين . ونبغ في العلوم الشرعية وفي الفروع الفلسفية على الأخص[٦] . وكتب في المعارف الإنسانية التي كانت شائعة في ذلك الوقت فهو دائرة معارف عامة جمعت كل فن وموضوع .

والبهائي صاحب الكشكول وإن كان حكيماً ومتصوفاً إلا أنه لم ينصرف إلى معالجة الفلسفة وقضايا التصوف انصرافاً كلياً بل عالج المسائل معالجة « الأنسكلوبيدي » الذي يهتم بكل شيء ويبحث عن كل شيء . لم يفعل ذلك في معالجة القضايا الفلسفية والمسائل الصوفية فقط بل كان ذلك شأنه في كل المواضيع — تقريباً « ولذلك كانت كل طائفة من طوائف المسلمين تنسبه إليها »[١] « تراه يعظم كثيراً من الصوفية الأغبياء والملاحدة الأشقياء في جملة من مؤلفاته »[٢] مثل مدّاحه الحسين بن منصور الحلاج وجماعة من المتصوفة الذين تحوم حولهم الشبه . وهذا ما جعل بعض المتعصبين المحافظين أمثال المحدث الشيخ عبد الله ابن صالح البحراني والعلامة المجلسي وفيض الله التفرشي وأمثالهم يضعّفونه في كتبهم ولا يأخذون بروايته[٣] . ويغمزون في بعض ميوله ولا سيما في ميوله إلى التصوفة والتصوف[٤] . على أن الرجل ثقة جليل القدر ولا يشك في وثوقه أكثر العلماء[٥] .

أما المير محمد باقر الاسترآبادي المعروف بالداماد وهو لقب ورثه من أبيه السيد محمد الذي تزوج من ابنة العالم العربي السوري الشيخ علي بن عبد العال الكركي فعرف به ومعناه « الصهر » فهو فيلسوف عميق التفكير قوي العقل تدل أبحاثه في كتابه « القبسات »[٦] على علم غزير في الحكمة والفلسفة ومواضيع علم الكلام[٧] .

أما فلسفته فهي فلسفة إشراقية وقد عرف لذلك «بالإشراقي» أو « الإشراق » وأما أشعاره فهي مشرقة الديباجة مسبوكة

---

(١) عن الفلسفة الاشراقية راجع كشاف اصطلاحات الفنون للشيخ محمد علي التهانوي في Bibliothic Indica nr 88. 1854 A. Sprenger Dictionary of the Technical Terms Vol 1. P, 371.

(٢) روضات الجنات ج ١ ص ١٩٤ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) روضات الجنات ج ١ ص ١١٥ .

(٥) راجع عنه روضات الجنات ج ٤ ص ٥٢٣ وما بعد .

Dwight Donaldson The Shi'ite Religion London 1933 P 300

Brown A Litarary History of Persia Vol 4 P, 424 Sir Jobu malcolm Histoy of Persia Vol 1 PP, 558 - 559.

عن كتبه راجع روضات الجنات ج ٤ ص٥٢٢ وبراون طبع بطهران سنة ١٣٢١ .

(٦) الكشكول طبع بمصر سنة ١٣٠٥ ولكن حذفت منه الأشعار الفارسية .

(١) راجع روضات الجنات ج ٤ ص ٥٣ وهذا القول يمثل وجهة نظر بعض الأشخاص وقد ذكرها مؤلف كتاب روضات الجنات .

(٢) كذلك نفس المصدر .

(٣) كذلك .

(٤) كذلك أيضاً Brown Vol 4 P, 424 .

(٥) روضات الجنات ج ٤ ص ٥٣٥ . راجع رجال التفرشي .

(٦) راجع كتابه وقد طبع بطهران سنة ١٣١٤ طبعة حجرية وقد تم تأليفه في عام ١٠٣٤ للهجرة سنة ١٦٢٥ للميلاد راجع أيضا الكنتوري ص ٢٢ و ٥٩ روضات ج ١ ص ١١٦ .

(٧) Brown Vol 4 P, 428 عن كتب راجع روضات الجنات ص٣٣١ أيضا المقال الذي كتبه أبو عبد الله المزنجاني في مجلة المجمع العربي سنة ١٩٢٩ المجلد التاسع ج ١١ — ١٢ ص ٦٦١ وما بعد بعنوان صدر الدين الشيرازي .

الأسلوب على طريقة الصوفيين الإشراقيين[١] . وقد أثرت هذه الفلسفة على نفسية تلميذ الشهير المعروف باللا صدرا وهو صدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازى أعظم الفلاسفة التأخرين[٢] .

يقول صاحب كتاب روضات الجنات عن اللا صدرا « كان اللا صدرا فائقاً على سائر من تقدمه من الحكماء إلى زمن الطوسى منفتحاً أساس الإشراق ومفتحاً أبواب الفصيحة على طريقة المشائين والرواقيين »[٣] . ويقصد صاحب روضات الجنات بالمشائين الفلاسفة الأرسطو طاليسيين[٤] ويمثلهم كما يقول المستشرق الإنكليزى براون ، ابن سينا خير تمثيل . وعلى هذا فتكون فلسفة اللا صدرا فلسفة معاكسة لفلسفة أرسطو وابن سينا كل المعاكسة[٥] . أما المستشرق الفرنسى كوبينوه « Gobineau » فكان قد ذكر عنه أنه كان من الفلاسفة الذين استمدوا فلسفتهم من الفلسفة الأرسطوطاليسية ومن فلسفة ابن سينا الفيلسوف الذى كان بارعاً فى هذه الفلسفة دارساً لها وإن لم يكن مقلداً لها تمام التقليد[٦] .

والحقيقة أن رأي كوبينو الذى انتقده المستشرق براون هو المذهب الصحيح . فقد استمد اللا صدرا من المنبع الأرسطوطاليسى ومن فلسفة ابن سينا ما شاء أن يستمد ؛ وقد سعى فيما بعد لبث فلسفة ابن سينا التى كانت قد اندثرت وماتت فى نواحي إيران حتى وجه أنظار الطلاب والباحثين إليها[٧] . وقد كان أستاذه الميرباقى الداماد من الحريصين على هذه الفلسفة فلا يستبعد أن يكون هذا الحب الذى نجده فى كتب اللا صدرا من أثر ذلك التوجيه الذى رسمه أستاذه فى كتبه ولا سيما فى كتابه الفلسفى الشهير « القبسات »[٨] . يستمد اللا صدرا فلسفته فى الواقع من منابع كثيرة أهمها أراء اليونانيين ولا سيما أراء أرسطو وتلميذه ابن سينا ومن أفكار التصوف الشهير محيى الدين بن العربى ومن تعاليم الدين الإسلامى . من القرآن والحديث والسنة النبوية وما جاء عن الأئمة من أقوال[٩] .

ولابن عربى المتصوف الشهير وصاحب الآراء المعروفة فى عالم التصوف مثل رأيه فى « وحدة الوجود » وأفكاره الأخرى التى تعارض ظاهرها الشريعة الإسلامية[١٠] منزلة عظيمة فى نظر اللا صدرا وفى نظر الفلاسفة الآخرين من أهل هذا الجيل . وقد تكون وحدة الرأى ووحدة المشارب والأفكار هى التى جمعت بين الإثنين بين محيى الدين بن العربى وبين اللا صدرا فى المذهب الصوفى على تباعد الشخصين . وقد اتهم اللا صدرا نفسه بمثل ما اتهم به ابن العربى ؛ ففى كتاب « الأسفار » وهو من أهم كتبه فى الفلسفة « كلمات لا تلائم ظاهر الشريعة »[١١] . وقد دافع عنه أتباعه وأنصاره بمثل ما دافع أتباع محيى الدين بن العزيبى وأنصاره عنه[١٢] .

(يتبع)

جواد على

(١) نفس المصادر .

(٢) المجمع العلمى المجلد التاسع سنة ١٩٢٩ عدد ١١ — ١٢ ص ٦٦٣ .

(٣) روضات الجنات ص ٣٣١ .

(٤) Brown Vol 4 P, 428 .

(٥) نفس المصدر .

(٦) Gobineau Les Religius et les Philosophies etc Brown Vol 4 P, 431. Igbal, أيضاً , 1966 PP, 80 — 92 Development of meta physics of muslim Philosophy London Lumjoc 1908 P, 75

(٨) مجلة المجمع العلمى العربى ج ١٢ ص ٨ ٧ .

(١) راجع كتاب القبات المطبوع سنة ١٣١٤ بطهران الفصول الأولى — القبات الالهية .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى المجلد التاسع عدد ١٢ ص ٨٢٨ .

(٣) عن ابن عربى راجع الكتب المؤلفة فى التصوف لاسيما كتاب المستشرق الانجليزى « نيكلسون » عن التصوف الاسلامى ودائرة المعارف الاسلامية فى مادة « ابن عربى » وكتب التصوف . وكان معاصراً للشيخ عبد القادر الجيلانى له خصوص الحكم والفتوحات المكية ومواقع النجوم . ومشكاة الأنوار فيما يروى عن الله سبحانه وتعالى من الأخبار الخ . روضات ج ٤ ص ١٩٣ .

(٤) روضات ص ٣٣٢ .

(٥) روضات الجنات ص ٣٣١ .

مطبعة الرسالة
مستعدة لطبع الكتب والمجلات
بما عرف عنها من
الرقة ، والسرعة ، والنظافة ، واعتدال الأسعار